مع الأسطول العربي في فتوحاته

(من الزمن الراشدي حتى العصر العباسي)

شهد العصر الراشدي في عهد الخليفة عثمان بن عفّان نصراً كبيراً لأسطول المسلمين على أسطول البيزنطيين في معركة "ذات الصواري" حينما كان معاوية بن أبي سفيان أميراً على دمشق. وشهدت الفتوحات البحرية في العصر الأموي أقصى توسّع للإمبراطورية العربية في البحر المتوسّط.

وكان معاوية بن أبي سفيان يتوق للقيام بغزو الروم في البحر منذ أن ولاّه الخليفة عمر بن الخطاب إمرة دمشق سنة (١٥ هـ/٦٣٧م)، فمنعه عمر خوفاً على المسلمين من الغرق في البحر، خصوصاً وأن عهدهم باليمّ قريب ولم تكن لديهم الخبرة الكافية في أساليب القتال البحري كما هو الحال عند الروم البيزنطيين.

ولمّا صارت الخلافة لعثمان بن عفّان استأذنه معاوية في ركوب البحر بهدف الفتح ولم يزل يلحّ عليه حتى أذن له بشرط أن لا يكره أحداً من المسلمين على النزول في الماء، وأن يصطحب معه زوجته.

وما أن نادى معاوية بنفسه خليفة على العالم الإسلامي وجعل دمشق عاصمة له سنة (٤١ هـ/٦٦١م) حتى بدأ بإنشاء الأسطول والعمائر البحرية بهدف نشر الفتوحات البحرية من جهة، وحماية سواحل المسلمين وتوسيع رقعتها من جهة أخرى. ثم رتّب غزو البحر صائفة وشاتية [في الصيف وفي الشتاء] كما هو الحال في غزوات البَرّ، وقام بتقوية الثغور البحرية وشحنها بالجند المدرّبين على ركوب البحر، وأنشأ دُوْر الصناعة البحرية لإنتاج السفن الحربية وسفن الإمداد والتموين.

قال ابن خلدون في مقدّمته ص ٣١٣: (ولمّا ملك المسلمون مصرَ كتب عمر بن الخطّاب إلى عمرو بن العاص "أن صف لي البحر"، فكتب إليه: "إن البحرَ خَلْقٌ عظيمٌ يركبه خَلْقٌ ضعيفٌ دُوْدٌ على عُوْدٍ". فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه.... ولما استقر المُلك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم

وتحت أيديهم وتقرَّب كلُ ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النَّواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، واستَحْدَثوا بُصَراء بها فشَرِهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشَّواني[1] وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمْطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافّته مثل الشام وأفريقيَّة والمغرب والأندلس...).

١- **فتح جزيرة قبرص** Cyprus: بعد انحسار شتاء سنة ٢٨ هـ/٦٤٩م (وقيل ٢٧ هـ أو ٢٩ هـ، وقيل أيضاً ٣٣ هـ باختلاف المصادر) كان فتح قبرص على يد معاوية بن أبي سفيان أمير دمشق في عهد الخليفة عثمان بن عفّان، فقد وصل بالأسطول الذي انطلق به من ميناء عكا إلى شواطىء قبرص، وكانت أعظم القواعد الاستراتيجية للأسطول الرومي في المشرق، ونزل بجنوده في الجزيرة ترافقه زوجته "أم حرام بنت ملحان الأنصارية"، وأبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وشدّاد بن أوس، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثي[2]، وفي نفس الوقت سار إليها من مصر عبد الله بن سعد[3] فالتقى الأسطولان واجتمعا عليها، وكان الخليفة قد أوصى معاوية أن يحمل مع الملاحين أهليهم ليكونوا أكثر شجاعة، وفي النزول فقد معاوية زوجته (أم حرام) فكانت أول شهيدة محاربة عبر البحر في الإسلام، ونجح معاوية في التوغّل في قبرص وفي الاستيلاء على عاصمتها قسطنطينة Constantina، وصالحهم أهلها على جزية مقدارها سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدّون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون.

وفي سنة ٣٢ هـ/٦٥٢ - ٦٥٣م أخلّ أهل قبرص بشروط الصلح مع المسلمين، وأمدّوا البيزنطيين بسفن ساهمت في مهاجمتهم الشواطىء العربية، فصمّم معاوية على ردعهم نهائياً فخرج إليهم سنة ٣٣ هـ/٦٥٣ - ٦٥٤م باسطول تعداده على ما قيل ٥٠٠ سفينة واستولى عليها.

ولم تحصل الروم على الهدنة مع معاوية لمدة ثلاث سنوات إلا بعد أن تعهّدت بدفع مبالغ طائلة، فارتاحت خلالها ثغور الشام ومصر من الهجمات البحرية المباغتة.

٢ - **فتح جزيرة أرْوَاد** Arwad: جزيرة صغيرة على الساحل السوري قبالة مدينة طرطوس وعلى بعد ٣ كم منها، وكان اسمها (أرادوس)، غزاها معاوية بن أبي سفيان أول مرة سنة ٢٨ هـ/٦٤٨ - ٦٤٩م لكن قلعتها لم تستسلم، ثم أعاد غزوها سنة ٢٩ هـ/٦٤٩ - ٦٥٠م فاستولى عليها وأخلاها من سكانها.

٣ - **فتح جزيرة مَلَطِيَّة** Malta: قال البلاذري ٢٦١: وجَّه عِيَاض بن غَنْم، حبيب بن مَسْلَمَة الفِهْري، من شِمْشَاط إلى مَلَطِيَّة ففتحها [في خلافة عمر بن الخطاب]، ثم أغلقت. فلمَّا ولي معاوية الشام والجزيرة وجَّه إليها حبيب بن مَسْلَمَة، ففتحها عنوة ورتَّب فيها رابطة من المسلمين... ثم انّ أهلها انتقلوا عنها أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعَّثتها، ثم تركتها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط. وفي سنة ١٢٣ هـ/٧٤١م هاجمها الروم ثم رحلوا عنها، وأعادوا حصارها سنة ١٣٣ هـ/٧٥٠ - ٧٥١م وهدموها، ثم حررها الخليفة المنصور العباسي سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧م.

٤ - **غزو جزيرة صقلية** Sicily: غزا معاوية بن حَدِيْج الكِنْدي[٤] أيام معاوية بن أبي سفيان جزيرة سِقِلِّيَة سنة ٣٢ هـ/٦٥٢م. ثم غزاها عبد الله بن قيس بن مَخْلَد الدِزَقي[٥] فأصاب أصنامَ ذهب وفضّة مكلّلة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية، فوجّه بها معاوية إلى بصرى لتُحمل إلى الهند، فتباع هناك ليثمن بها. ولم تزل تُغزى بعد ذلك. وورد في الكامل لابن الأثير قوله ٣٤٥/٤: "وفي هذه السنة [ويقصد سنة خمس وثلاثين ومائة في عهد الخليفة العباسي أبي العباس السفاح] غزا عبد الله بن حبيب جزيرة صقلية وغنم بها وسبى وظفر بها ما لم يظفره أحد قبله بعد أن غزا تلمسان، واشتغل ولاة إفريقية بالفتنة مع البربر فأمن الصقلية وعمّرها الروم من جميع الجهات وعمّروا فيها الحصون والمعاقل وصاروا يُخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما طارقوا تجّاراً من المسلمين فيأخذونهم". وقد فتح آل الأغلب بن سالم الإفريقي منها نيفاً، وعشرين مدينة، وهي في أيدي المسلمين، حتى فتحها أسَد بن الفُرات[٦] في العصر العبّاسي نحو سنة

٢١١ – ٢١٣ هـ/٨٢٦ – ٨٢٨م أيام الخليفة المأمون، كما فتح أحمد بن محمد بن الأغلب منها في خلافة المتوكل: (قصر يانة، وحصن غليانة).

٥ – **معركة (ذات الصواري)**: أول انتصار بحري حاسم للمسلمين على أسطول بيزنطة[٧] سنة ٣٤ هـ/٦٥٤ – ٦٥٥م (وقيل ٣١ هـ)، التقى فيه الطرفان غربي الاسكندرونة[٨] (وفي بعض المصادر بالقرب من ثغر فونيكة غربي الاسكندرية القريب من مدينة مرسى مطروح المصرية)[٩]!، وقيل بأن عدد القطع العربية كان (٢٠٠) سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، يقابلها (٥٠٠ – ٦٠٠) سفينة بيزنطية بقيادة الامبراطور (قسطنطين أو قنسطانز)[١٠]، وتمخّضت هذه المعركة عن انهزام الأسطول البيزنطي وطرده من شرق البحر المتوسّط، وقد سمّيت بذات الصواري إمّا لكثرة الصواري التي تكسّرت فيها أو لكونها أول معركة بحرية خاضها الاسطول العربي.

بدأت معركة "ذات الصواري" عندما جمع الامبراطور أكبر قوة بحرية للروم وتهادى بها على طول الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى[١١] يريد إغراق سفن المسلمين والتخلّص منها، فاقترب من الاسطول العربي الذي كان في خليج (ليقيا)[١٢] يتزوّد بالأخشاب، غير بعيد عن خليج الاسكندرونة، ويبدو أن المسلمين كانوا على حذر شديد وأهبّة للطوارىء تحسّباً من انقضاض أسطول الروم عليهم، وكان حذرهم في محلّه إذ سرعان ما انقضّت عليهم الأشرعة البيزنطية وبدأ القتال بالدوران والمراوغة ومحاولة تدمير المجاديف والمجدّفين المسلمين بالنبال، وتحطيم دفّات السفن العربية بالاقتحام المباشر، أو شدّ بعضها إليهم بالكلاليب للانقضاض على بحارتها، وأيقن البحّارة العرب أن لا قبل لهم بالانتصار، وهنا تجلّت العقلية القتالية المبدعة فلجأوا إلى ربط سفنهم ببعضها بالحبال على نسق واحد هاجموا به سفن الروم ووثبوا على أعدائهم وقاتلوهم بالسيوف والخناجر وكأنهم يقاتلون في البرّ، وبذلك انقلب ميزان القوى فتمكّنوا من إغراق بعض سفن العدو وإعطاب عدد منها مما دفعها إلى التراجع والفرار بما تبقى لديهم منها بعد أن فقدوا معظمها، وفرّ

الامبراطور ناجياً بنفسه إذ كاد أن يقع أسيراً، وأسفر القتال عن انتصار ساحق للمسلمين وهزيمة نكراء لبيزنطة لم تأخذ بثأرها إلا بعد مضي خمس وسبعين سنة، وكانت من نتائج هذه المعركة أن شعر المسلمون أنهم أصبحوا قوّة بحرية لها خطرها.

وهنا أدرك معاوية أن القسطنطينية تشكّل مركز انطلاق وإمدادات للقوات البيزنطية بالعدّة والعتاد، وتعمل على شنّ الغارات على سواحل الشام وشمال إفريقية، فقرّر الحدّ من قدراتها العدوانية بافتتاحها وجعلها تحت السيطرة العربية.

٦ - **محاولات فتح القسطنطينية**[١٣] Constantinople:

أ - **المحاولة الأولى:** تعود هذه المحاولة إلى سنة ٣٢ هـ/٦٥٢ - ٦٥٣م في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفّان الذي أمر بتجهيز جيش برّي قاده أمير دمشق معاوية بن أبي سفيان واخترق به الأناضول حتى مشارف القسطنطينية، كما أمر الخليفة بتجهيز أسطول بحري بقيادة أمير البحر (بُسْر بن أَرْطاة)[١٤] انطلق من ميناء طرابلس فاصطدم بالاسطول الرومي قبالة سواحل الشام، وكانت حصيلة هذه المعركة انهزام الروم على حساب خسائر كثيرة مني بها المسلمون، لذلك لم يتابع معاوية الزحف البرّي إذ لا يمكن فتح القسطنطينية دون أسطول، فعاد إلى بلاد الشام.

ب - **المحاولة الثانية:** كان حلم فتح القسطنطينية ما يزال يراود معاوية بن أبي سفيان، وبعد ثلاث سنوات من توليه الخلافة في بلاد الشام، أي في سنة ٤٤ هـ/٦٦٤م [وقيل سنة ٤٨ أو ٤٩ هـ]، جهّز جيشاً برّياً بقيادة عبد الرحمن بن سيف الله خالد بن الوليد،وأسطولاً قيل بأنه مؤلف من (١٧٠٠) سفينة كاملة العَدَد والعُدَد تحت إمرة أمير البحر (بسر بن أرطاة) الذي وصل بسفنه إلى بحر مرمرة[١٥]. لكن الحصار فشل بسبب متانة أسوار القسطنطينية ومناعة موقعها ودخول فصل الشتاء ببرده القارص وزمهرير رياحه.

ج - **المحاولة الثالثة:** استفاد المسلمون من المعلومات الجغرافية والعسكرية التي جمعوها في محاولتيهما السابقتين للقيام بضربة جديدة، وكان على

عرش بيزنطة الامبراطور (قسطنطين الرابع)، فحشد معاوية سنة ٤٨ هـ/٦٦٨م (وقيل سنة ٥٠ هـ، أو ٥٣ هـ أو ٥٤ هـ) خيرة قوّاته بقيادة سفيان بن عوف الأزدي، وكثّف حشد أساطيله من ثغور الشام ومصر ووجّهها إلى مضيق الدودنيل[١٦] قرب القسطنطينية، واتّخذت القوات المسلمة جزيرة (سيركوس)[١٧] في بحر مرمرة مركزاً لقيادتها، وقررت إطالة أمد الحصار، واستمرّ الحال بها سبع سنوات فوجئت في آخرها بظهور سلاح سرّي بيزنطي جديد فتك بسفن المسلمين وأحرق كثيراً من قطعهم البحرية وعُرف باسم (النار الإغريقية)[١٨] مما اضطرهم للانسحاب بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة. واعتبرت هذه المحاولة أعظم عمل حربي بحري.

لم تتوقف محاولات فتح القسطنطينية في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، لكنها لم تكن أكثر من حملات استطلاعية على البوسفور بهدف التحضير للهجوم الكبير، وقد تمكن الروم في إحدى هذه الحملات سنة ٩٠ هـ/٧٠٩م من أسر أمير البحر "خالد بن كيسان"[١٩] لكن الامبراطور البيزنطي [جوستنيان الثاني ٧٠٥ – ٧١١م] أعاده إلى الخليفة كبادرة حسن نية لاستئناف العلاقات الودية بين الدولتين.

د – **المحاولة الرابعة:** وهي الأخيرة لفتح القسطنطينية، جرت في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ هـ/٧١٥ – ٧١٦م حين جهّز جيشاً كبيراً بقيادة مسلمة بن عبد الملك، شقيقه، وأضخم أسطول عرفه المسلمون بقيادة أمير البحر سليمان، ولعله سليمان بن معاذ الأنطاكي[٢٠]، الذي قسّمه إلى قسمين، أحدهما في بحر إيجة لقطع إمدادات العدو وتموينه، والآخر في البوسفور لقطع الطريق الشمالي، وأقفل المدخل البحري المؤدي إلى (القرن الذهبي) بسلسلة كانت **الحاجز الأول من نوعه في التاريخ.** لكن الطبيعة كانت أقوى من الإرادة فثارت العواصف ولعبت الريح والأمواج بالسفن تصدمها ببعضها البعض فتهشّمها، ويشاء القدر أن يتوفى الخليفة سليمان سنة ٩٩ هـ/٧١٧ م وخلفه عمر بن عبد العزيز، وكذلك توفي أمير البحر سليمان بن معاذ، وفي العام التالي وصلت إلى المسلمين نجدات بحرية من مصر وليبيا وتونس، وكان على رأس بيزنطة الامبراطور (ليو الثالث)،

لكن الثلوج والبرد القارس وهجمات الأسطول البيزنطي فتك بالمسلمين وسفنهم، ونفق كثير من دوابهم، مما عطّل وصول الإمدادات إليهم، عندها أمر الخليفة عمر بالانسحاب من البرّ والبحر، وتوقّفت محاولات العرب لفتح القسطنطينية بعد ذلك. إلى أن استطاع السلطان العثماني (محمد الفاتح) الاستيلاء عليها سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م وجعلها عاصمة الإمبراطورية العثمانية، وعُرفت في ذلك العصر باسم الآستانة.

٧ - **فتح جزيرة رُودِس** Rhodes: كانت هذه الجزيرة الواقعة عند مدخل بحر إيجة تتعرّض للغارات وتدمير الحصون بصورة متكرّرة منذ سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤م، ثم وقعت جزيرة (كوس) في أيدي رجال جَنَادَة، ووصلت الغارات إلى جزيرة كريت، وكان معاوية بن أبي سفيان يُغزي برّاً وبحراً، ويمهّد لفتح القسطنطينية، لذلك كان يحرص على تأمين الطريق البحري المؤدي إليها بالاستيلاء على قبرص ورودوس وكوس وكريت وكل هذه الجزر على مداخل بحر إيجة، فبعث جَنَادة بن أبي أميَّة الأَزْدي[٢١] إلى رُودِس ففتحها عنوة سنة ٥٢ هـ/ ٦٧٢م[٢٢]، وكانت غيضة في البحر وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين،

قالوا: ورُودِس من أخصب الجزائر وهي نحواً من ستّين ميلاً، فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة. قال البلاذري: حدّثني محمد بن سعد عن الواقدي قالوا: أقام المسلمون برُودِس سبع سنين في حصن اتّخذ لهم، فلمّا مات معاوية كتب يزيد إلى جَنَادة يأمره بهدم الحصن، والقفل، وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها، كما كان مُجَاهد بن جَبْر مقيماً بها يقرىء الناس القرآن.

٨ - **فتح جزيرة أَرْوَاد** (في بحر القسطنطينية)[٢٣]: في سنة ٥٤ هـ/٦٧٤م (وقيل سنة ٥٣ هـ) فتح جَنَادة بن أبي أميَّة الأَزْدي جزيرة أَرْوَاد قرب القسطنطينية [وهي غير جزيرة أرواد قبالة الساحل السوري] وأسكن معاوية المسلمين فيها، وكان ممن فتحها مُجاهِد بن جبر المقري، وتُبَيْع بن امرأة كعب الأحبار، وبها أقرأ مجاهدُ تُبَيْعاً القرآن، ويقال أنه أقرأه القرآن برُودِس.

٩ - **غزو جزيرة إقْرِيطِش** (كريت Crete)[٢٤] قام جَنَادة بن أبي أميَّة الأَزْدي في عهد معاوية بن أبي سفيان بغزو هذه الجزيرة، فلمّا كان زمن الوليد [بن عبد الملك] فُتح بعضها ثم أغلق، ثم غزاها حُمَيْد بن مَعْيُوق الهَمْداني في خلافة هارون الرشيد العّاسي، ففتح بعضها، بعده غزاها أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالإقريطشي في خلافة المأمون وافتتح منها حصناً واحداً، ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء، حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم.

١٠ - **فتح جزيرة قُوصَرَّة:** جزيرة في بحر الروم، بين المهدية بتونس وجزيرة صقلية.ذكرها ابن خلدون في مقدّمته ص ٣١٣ فقال: "أوعز الخليفة عبد الملك [بن مروان] إلى حسّان بن النّعمان عامل أفريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ومنها كان فتح صِقِلِيَّة أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفُتْيا، وفتح قُوصَرَّة أيضاً أيامه".

١١ - **غارات بحرية على سواحل الروم:** استمرّت الغزوات المتكررة على سواحل الروم أيام الخليفة هشام بن عبد الملك بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن معاوية بن حَدِيْج.

١٢ - **فتح الأندلس:** في سنة ٩٠ هـ/٦٠٩م بدأت طلائع فتح الأندلس عندما جهّز موسى بن نُصير والي إفريقية في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك حملة استطلاعية مؤلفة من ٤٠٠ رجل و١٠٠ فارس و٤ سفن بقيادة طريف بن مالك اتّجهت نحو (الجزيرة الخضراء) جنوبي الأندلس فغزتها وعادت سالمة، ولا يزال المكان الذي نزل فيه هذا القائد إلى اليوم يعرف باسم "**رأس طريف**".

تشجّع موسى بن نصير بعد نجاح هذه الحملة، فجهّز جيشاً من سبعة آلاف مقاتل من العرب والبربر وولّى عليهم طارق بن زياد الليثي[٢٥] والي طنجة وأحد قادة البربروشجعانهم، فعبر طارق في شعبان من سنة ٩٢ هـ/٧١١م المضيق الفاصل بين شمال إفريقية والأندلس واستولى على الجبل الذي عُرف باسمه "**جبل**

طارق"، وفتح حصن قرطاجنة، ثم تغلغل داخل البلاد ففتح إشبيلية وأستجة وأرسل من استولى على قرطبة ومالقة، ثم فتح طليطلة وغيرها من مدن الأندلس.

١٣ - **غزو جزيرة سردانية** (سردينيا Sardinia): وهي جزيرة إيطالية في البحر التيرانيّ، يفصلها عن جزيرة كورسيكا مضيق بونيفاسيو. غزتها القوات البحرية المسلمة المرابطة في الأندلس سنة ٩٢ هـ/٧١٠م أيام الوليد بن عبد الملك، ثم غزاها ثانية عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري سنة ١٣٥ هـ/ ٧٥٢م في عهد الخليفة العبّاسي أبي العباس السفّاح، وأعيد غزوها للمرة الثالثة سنة ٣٢٣ هـ/٩٣٥م من قبل المنصور بن القائم العلوي صاحب إفريقية، وكانت المرّة الرابعة والأخيرة سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥م عندما غزاها مجاهد العامري من دانية ثم أخرجه الروم منها ولم تغز بعد ذلك.

البحرية الأموية في مقدمة ابن خلدون[٢٦]

(... ولمّا ملك المسلمون مصرَ كتب عمر بن الخطّاب إلى عمرو بن العاص "أن صف لي البحر"، فكتب إليه: "إن البحرَ خَلْقٌ عظيمٌ يركبه خَلْقٌ ضعيفٌ دُوْدٌ على عُوْدٍ". فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه، ولم يركبه أحد من العرب إلا من افتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعَرْفَجَة بن هَرْثَمَة الأزدي سيّد بَجَيلَةَ لمّا أغْزاهُ عَمَّانَ فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنّفه أنه ركب البحرَ للغزوِ، ولم يزلِ الشأنُ ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده، والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا مهرةً في ثقافته وركوبه والرومُ والإفرنجةُ لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده مَرِنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته، فلمّا استقر المُلك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم وتقرَّب كلُ ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النَّواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، واستَحْدَثوا بُصَراء بها فشَرِهوا إلى الجهاد فيه، وأنشئوا السفن فيه

والشَّواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمْطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافّته مثل الشام وأفريقيَّة والمغرب والأندلس، وأوعز الخليفة عبد الملك [بن مروان] إلى حسّان بن النّعمان عامل أفريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ومنها كان فتح (صِقِلِيَّة) أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفُتْيا، وفتح (قُوصَرَّة) أيضاً أيامه، بعد أن كان معاوية بن حَدِيْج أغزى صِقِلِيَّة أيام معاوية بن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفُتحت على يد ابن الأغلب وعامله أسد بن الفرات).

الهوامش

(١) **الشَّواني**: جمع شُوْنة Galère وهو المركب المُعَدّ للجهاد في البحر، وأقدم أنواع السفن وأطولها وأهمها في الأسطول الروماني.

(٢) **عبد الله بن قيس الحارثي** (٠٠٠ - ٥٣ هـ/٠٠٠ - ٦٧٣م): أمير البحر في صدر الإسلام، غزا جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ/٦٤٩م، وبقي على البحر فغزا خمسين غزاة، صيفاً وشتاءً، لم يغرق من جيشه أحد، ولم يُنكب، وقتله الروم وهو يطوف في أحد المرافىء متخفياً، دلتهم عليه امرأة كانت تتسول فأعطاها فعرفته فراسة.ذكرته المصادر بأسماء مختلفة فهو عند البلاذري ٣٢٩ نقلاً عن الواقدي: عبد الله بن قيس بن مَخْلَد الدِزَقي، وعند ابن الأثير ٤٨/٣: عبد الله بن قيس الجاسي، وفي الإصابة للعسقلاني (٦٣٤١): عبد الله بن قيس الحارثي.

(٣) **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** (٠٠٠ - ٣٧ هـ/٠٠٠ - ٦٥٧م): من أبطال الصحابة ومن كتّاب الوحي، كان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر وولي إمرتها سنة ٢٥ هـ، دانت له إفريقية كلها، وغزا الروم بحراً وظفر بهم في معركة "ذات الصواري"، وتوفي بعسقلان من أرض فلسطين.

(٤) **معاوية بن حَدِيْج** (٠٠٠ - ٥٢ هـ/٠٠٠ - ٦٧٢م): معاوية بن حَدِيْج بن جفنة بن قنبر، أبو نعيم الكندي ثم السكوني، صحابي أمير، وابن الشاعرة "كبشة" بنت معدي كرب، تولى مصر، وغزا المغرب مراراً، كما غزا صقلية، توفي بمصر.

(٥) **عبد الله بن قيس بن مَخْلَد الدِزَقي**: أنظر الهامش رقم (٢).

(٦) **أسَد بن الفُرات** (١٤٢ - ٢١٣ هـ/٧٥٩ - ٨٢٨م): أسَد بن الفُرات بن سنان، أحد القادة الفاتحين في العصر العباسي، أصله من خراسان ونشأ بتونس، استعمله زيادة الله الأغلبي على جيشه وأسطوله، ووجّهه لفتح جزيرة صقلية نحو ٢١١ - ٢١٣ هـ، فهاجمها بعشرة آلاف ودخلها فاتحاً، وكان أول من فتحها.

(٧) **بيزنطة** Byzantium: كانت في السابق مستعمرة يونانية على مضيق البوسفور في تركيا. أُنشئت حوالي عام ٦٦٠ ق. م. أعاد الأمبراطور قسطنطين الأول بناءها عام ٣٣٠ م، ونقل عاصمة الأمبراطورية الرومانية من رومة إليها، ودعاها على اسمه "القسطنطينية". وفي عام ٣٩٥م أصبحت عاصمة الأمبراطورية البيزنطية. استولى عليها السلطان العثماني محمد الفاتح عام ١٤٥٣م. وتُعرف اليوم بمدينة "إستنبول".

(٨) **الإسكندرونة** Iskenderun; Alexandretta: مدينة ساحلية على خليج الإسكندرون في الجزء الشمالي من سورية. أنشأها الإسكندر الكبير المقدوني عام ٣٣٣ قبل الميلاد. وأصبحت لتركية بعد سلْخ لواء الإسكندرون عن سورية الأمّ عام ١٩٣٩م.

(٩) هذا الرأي ذكرته د. سعاد ماهر في كتابها (البحرية في مصر الاسلامية ٨٤) وهو غير منطقي من وجهة النظر العسكرية، فما الذي جعل الاسطول البيزنطي يذهب بعيداً إلى غرب الاسكندرية ليواجه الاسطول العربي في حين أن هذا كان قريباً منه ويُحمل بالخشب من ساحل لبقية (سواحل كيليكية التركية اليوم)؟ وتذكر الموسوعات العالمية أن المعركة نشبت قرب جزيرة رودس وهو الأقرب إلى المعقول.

(١٠) **قسطنطين أو قنسطانز** Constans II Pogonatus: إمبراطور بيزنطة خلال السنوات ٦٤١ – ٦٦٨م. وفي أيامه حرّر العرب الاسكندرية عام ٦٤٢م، وجزيرة قبرص عام ٦٤٩م، وانهزم في معركة "ذات الصواري" البحرية ٦٥٥م، وفي عام ٦٦٣م نقل مقرّه إلى إيطالية وزار روما واستقرّ في سيراكوس بصقلية حيث اغتيل فيها عام ٦٦٨م.

(١١) **آسيا الصغرى** Asia Minor: شبه جزيرة في الجزء الغربي من آسيا، بين البحر الأسود شمالاً، والبحر المتوسط جنوباً، وبحر إيجه غرباً، وتشكل القسم الأعظم من تركيا.

(١٢) **ليقيا** Lycia: مقاطعة بحرية قديمة في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى. استولى عليها الفرس في عهد الملك كورش الكبير بعد مقاومة باسلة. وبعد القرن الرابع أصبحت مقاطعة رومانية منفصلة. عاصمتها: زَنثوس.

(١٣) اسمها القديم (بيزنطة Byzantium) ثم صارت (القسطنطينة Constantinople)، وبعد الفتح العثماني لها سمّيت (الآستانة)، وتُعرف اليوم بمدينة (استنبول Istanbul).

(١٤) **بُسْر بن أَرْطاة** (٠٠٠ – ٨٦ هـ/٠٠٠ – ٧٠٥م): صحابي وقائد من الجبابرة، وأمير البحر في عهد معاوية بن أبي سفيان.

(١٥) **بحر مَرْمَرة** Sea of Marmara: بحر داخلي صغير يفصل تركيا الأوروبية عن تركيا الآسيوية، ويصله ببحر إيجه مضيق الدردنيل، وبالبحر الأسود مضيق البوسفور. مساحته ١١،٤٧٢ كم٢.

(١٦) **مضيق الدردنيل** Dardanelles: مضيق بين تركيا الأوروبية وتركيا الآسيوية، يصل بحر إيجه ببحر مرمرة، طوله ٧٠ كمً. وعرضه يتراوح ما بين ١٢٧٠م و ٧ كم متر. عبره الإسكندر الكبير عام ٣٣٤ قبل الميلاد لمقاتلة ملك الفرس داريوس الثالث، وحصّنه السلطان محمد الفاتح عام ١٤٦٢ للميلاد. اسمه القديم: هلّيسبونت Hellespont.

(١٧) **سيركوس**: جزيرة في بحر مرمرة، وذُكر بأنها شبه جزيرة بارزة من الشاطىء الآسيوي داخلة في بحر مرمرة بإقليم Propontis، دعاها الروم باسم (كيزيكوس Cyzicus وورد اسمها أيضاً: سيزيكس أو سيركوس)، وسمّاها العرب جزيرة أرواد، وجعلوها مقراً لجيشهم، يأوون إليها في الشتاء، وينطلقون منها إلى الروم في الربيع والصيف (أنظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين لحتي ٤٨/٢). وعن ياقوت في معجم البلدان ١٦٢/١ والبغدادي في مراصد الاطلاع ٦١/١ قولهما: أرواد جزيرة في بحر القسطنطينية قريبة منها. ومما تجدر الإشارة إليه أن أرواد هذه هي غير جزيرة أرواد قبالة مدينة طرطوس على الساحل السوري وعلى بعد حوالي ٣ كم منها كما وهم البعض إذ من غير المعقول عسكرياً أن تُتخذ هذه الجزيرة البعيدة عن القسطنطينية مقراً للقوات العربية في ذلك الزمن.

(١٨) **النار الإغريقية** Greek Fire: النار الإغريقيّة أو اليونانيّة سلاح حارق اخترعه مواطن سوري اسمه (كالينيكوس) ويتألف من مزيج جلاتيني يستعر عفوياً ويبقى مشتعلاً دون أن ينطفىء حتى في حالة الرطوبة أو على سطح الماء، وكان الروم البيزنطيون أول من استعمله على نطاق واسع ضد الأفراد والسفن التي كانت تحاول غزو القسطنطينية منذ أواخر القرن السابع للميلاد.

(١٩) **خالد بن كيسان**: ذكره الطبري في تاريخه ٤٤٢/٦ (حوادث سنة تسعين للهجرة) ولم أجد له ترجمة.

(٢٠) **سليمان بن معاذ الأنطاكي**: ورد ذكره في كتاب (تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام) لمؤلفيه د. السيد عبد العزيز سالم، د. أحمد مختار العبادي ٣٥/١، كذلك ذكره د. شاكر مصطفى في كتابه (من معارك الجهاد في الإسلام) ولم يترجم له، ولم أتوصّل إلى ترجمته رغم كل المحاولات.

(٢١) **جنادة بن أبي أميّة** (٠٠٠ - ٨٠ هـ/٠٠٠ - ٦٩٩م): صحابي وقائد بحري، ومن كبار الغزاة في العصر الأموي، كان قائد غزوات البحر أيام معاوية كلها، ودخل جزيرة رودس فاتحاً سنة ٥٣ هـ، وتوفي بالشام.

(٢٢) تخبّطت المصادر في تاريخ فتح رودوس، ففي الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٤/٣: (سنة ٥٣ هـ/٦٧٣م، ثم يضيف: وقيل فتحت سنة ستين)، بينما وردت في عدد من الموسوعات الغربية: عام ٣٣ - ٣٤ هـ/٦٥٤م وأعتقد بأنه وهم، ومن المنطق أن يكون فتح قبرص أسبق من فتح رودس لأن الأولى أقرب إلى الساحل السوري وتشكّل رأس جسر يسهّل فتح الثانية خصوصاً وأن معركة ذات الصواري عام ٦٥٥م كان لها الأثر الكبير في أضعاف قدرة الأسطول البيزنطي في الدفاع عنها.

(٢٣) **جزيرة أرْوَاد**: أنظر الهامش ١٧، وانظر أيضاً: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٤٦/٣، وفتوح البلدان للبلاذري٣٣٠، ومعجم البلدان لياقوت ١٦٢/١.

(٢٤) **فتح جزيرة إقريطش**: هي جزيرة كريت الحالية في البحر المتوسط. أنظر فتوح البلدان للبلاذري ٣٣٠.

(٢٥) **طارق بن زياد** (نحو٥٠ هـ/نحو ٦٧٠م - ١٠٢ هـ/٧٢٠م): هو طارق بن زياد الليثي بالولاء، فاتح الأندلس، أصله من البربر، أسلم على يد موسى بن نصير، فكان من أشدّ رجاله، استدعاه الوليد بن عبد الملك إلى الشام مع موسى بن نصير سنة ٩٦ هـ، وهنا تضطرب أقوال المؤرخين حول نهايته.

(٢٦) **مقدمة ابن خلدون** ٣١٣.

مصادر البحث

- الأعلام: خير الدين الزركلي، ط ١١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٥
- البحرية في مصر الإسلامية: د. سعاد ماهر، ٨٧، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧
- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام: د. السيد عبد العزيز سالم، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، مصر .١٩٩٣ وطبعة أخرى صادرة عن دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١
- تاريخ بلاد الشام: أحمد اسماعيل علي٣٩١ وما بعدها، دار دمشق، دمشق ١٩٨٢
- تاريخ الخلافة الأموية والعباسية: رفيق المهايني ٦، ١٠، ٤٧، ٢٥٤، مطبوعات المكتبة الكبرى بدمشق ١٩٥١م
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: د. فيليب حتّي ٤٨/٢ دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣
- تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية: د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١
- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): الطبري ٢٨٨/٤، ٤٤٢/٦، ٥٢٣، دار التراث، بيروت (بلا تاريخ)
- فتوح البلدان للبلاذري ٨، ٢٠، ٢٦١، ٣٢٩، ٣٣٠ مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٧
- قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط: د. إبراهيم أحمد العدوي ، مكتبة نهضة مصر، الفجالة ١٩٦٣
- الكامل في التاريخ: ابن الأثير ٤٨/٣، ٤٩، ٥٨، ٢٤٦. ١٢٤/٤، ٣٤٥ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦
- ١٠٠ من معارك الجهاد في الإسلام: د. شاكر مصطفى٩٣، دار طلاس، دمشق ١٩٩٦
- مراصد الاطلاع: البغدادي ٦١/١ دار الجيل، بيروت ١٩٩٢
- معجم البلدان: ياقوت الحموي ١٦٢/١ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩
- مقدمة ابن خلدون ،٣١٢ دار الفكر، بيروت ١٩٨٨
- المنجد في الأعلام: ط ،٣٣ دار المشرق، بيروت ١٩٩٢

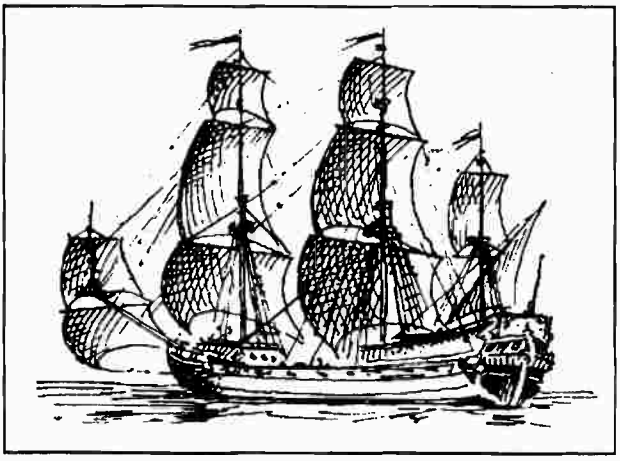

المركب المعروف باسم (الشونة)

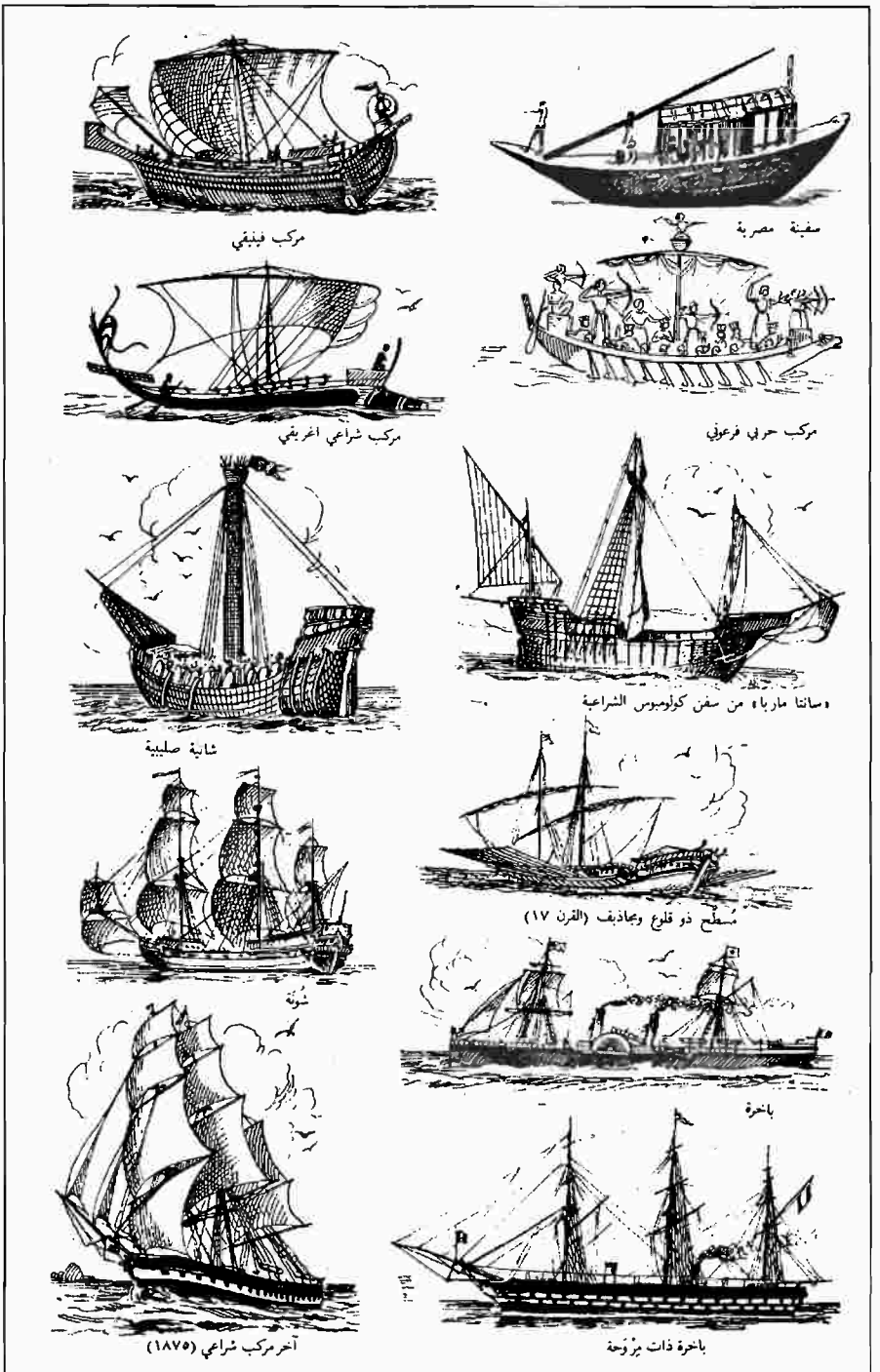

أشكال متنوعة من المراكب القديمة